

النظام السياسي في قرطاجة حتى سقوطها

سلمى عبد الهادي
جامعة الزرقاء
الأردن

الخلاصة

قرطاجة هي مهد للحضارة القرطاجية، والتي أسسها الفينيقيون، حيث تقع في شمال أفريقيا على خليج تونس، على تخوم تونس العاصمة اليوم. انشئت عام 814 ق.م. كامتداد لصور الفينيقية، واستقلت في حدود 650 ق.م. وهيمنت على المواطن الفينيقية في المتوسط، شمال أفريقيا وشبه جزيرة ايبيريا (إسبانيا اليوم) واستمرت حتى القرن الثالث قبل الميلاد حتى سقوطها عبر سلسلة حروب مع الرومان وكانت المدينة في فترة اوجها، كانت مفصل تجاري رئيسي وتأثير سياسي يمتد على معظم غرب المتوسط .

كانت أراضي قرطاجنة تشمل مناطق المستعمرات الفينيقية الأسبق منها وقامت قرطاجنة ببناء مستعمرات جديدة وفي كثير من الحالات إعادة استعمار المستعمرات الفينيقية (1) وقد جعلت تلك المستعمرات في طرابلس، تونس، الجزائر، المغرب وجنوب إسبانيا جعلت من قرطاجنة القائد والحامي الرسمي لفينيقي الغرب. قامت قرطاجنة ببناء مستعمرة لها في إبيزا في جزر البليار عام 654 ق.م وقامت كذلك بتحويل الأسواق التجارية المؤقتة في مدن طرابلس الفينيقية) لبدّة، أويّا وصبراتة (إلى أسواق دائمة طول العام مما أنعش هذه المدن وزاد من استقرارها الاقتصادي.

وقد وصلت مستعمرات القرطاجيين التجارية حتى جنوب البرتغال بقيادة همكون كما قاموا ببناء المستعمرات كذلك على شواطئ الأطلسي للمغرب الأقصى، وتدل رحلة حانون الملاح على النشاط الاستعماري للقرطاجيين حيث قام بزراع العديد من المستعمرات القرطاجية على ساحل المغرب الأطلسي بهدف توطين الكثير من الفينيقيين هناك. وكانت قرطاجنة تحكم 300 مدينة في الشمال الأفريقي وحده قبل أندلاع الحروب البونيقية. بلغ عدد سكان مدينة قرطاجنة ذاتها الـ 700,000 نسمة. وكانت المدن الفينيقية الغربية تتمتع بالحكم الذاتي لكن في ظل سيادة قرطاجنة عليها ويقدر أن عدد رعايا الإمبراطورية القرطاجية بلغ ما بين 3-4 ملايين نسمة. وقد كان سكان تلك الإمبراطورية خليطاً من الفينيقيين والليبيين الأمازيغ والإيبيريين والسردينيين وحتى بعض الجاليات اليونانية والإتروسكية (2).

(1) احمد الفرجاوي، بحوث حول العلاقات بين الشرق الفينيقي وقرطاجنة ، تونس ، 993 ، ص .

(2) أوريوسوس، تاريخ العالم، ترجمة وتحقيق عبد الرحمان بدوي، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1982 ، ص7.

اليسار ونشأة قرطاج

يعود تأسيس قرطاج، من الفينيقية "قُرْتُ حَدَسْتُ" ("المدينة الجديدة")، إلى العام 814 ق.م. وكانت أكبر وأشهر مركز تجاري فينيقي على الإطلاق، الذي ما لبث ان تحول سريعا إلى مدينة عظيمة وإمبراطورية ثرية منافسة الحضارات القديمة وخاصة روما. تقع قرطاج في بلاد تونس الحالية بالقرب من العاصمة وعلى بعد 20 كلم. وكأغلب شقيقاتها الشرقية، بُنيت المدينة على هضبة مرتفعة وفي محاذاة شاطئ البحر المتوسط على ميناء طبيعي. كانت في الأساس محطة على طريق عودة القوارب الآتية من إسبانيا والمحملة بالثروات ومواد الخام. تبتدئ القصة مع وفاة متان ملك صور الذي أوصى بالحكم إلى أولاده بيجماليون وشقيقته أليسار (إليسا أو ديدون) التي كانت مشهورة بجمالها وحكمتها.

رفض أهالي صور هذه المقاسمة وطالبوا بأن تكون مدينتهم ذات سيادة موحدة. أثار هذا الأمر انشقاق داخل العائلة المالكة، وخاصة بعد زواج أليسار مع عمها اشرباس الذي كان يتمتع بصلاحيات كبيرة توازي صلاحيات الملك، بحكمه رئيس كهنة معبد ملكارت. كان اشرباس يملك ثروة شخصية طائلة بالإضافة إلى ثروة المعبد التي كانت أيضا تحت تصرفه.

بجماليون، حريص على الاستيلاء على سلطة وثروة عمه، قام بقتل اشرباس. شعرت أليسار بالخطر وان حياتها أصبحت مهددة من قبل أخيها فقررت الهرب باستخدام الحيلة. فلعدم إثارة الشكوك عند شقيقها، أصدرت رغبتها في أن تستقر بالقرب منه في القصر. استجاب بجماليون رأسا على هذا الطلب على أمل أنها سوف تأتي مع ما ورثته بعد موت زوجها، وبعث راسا سفنه وخدمه لمواكبها إلى القصر. مع قدوم الليل، أمرت أليسار اتباعها بنقل الأكياس المليئة بالكنوز إلى عنابر السفن ومن ثم تعبئة الرمال بأكياس أخرى التي أوكلتها إلى خدام الملك لودعها على سطوح السفن من دون أن يدروا ما تحويه، وتوجهت مع العديد من وجهاء المدينة وكهنة المعبد الذين كانوا على علم بمخطط ملكتهم والرافضون لحكم بجماليون. بعد إبحارهم وفي عرض البحر، أمرت أليسار اتباعها برمي الأكياس المعبئة بالرمل في وسط المياه، بادعاء ذكرى زوجها الراحل والتسول عليه لقبول هذا التقدمة وليستعيد ثروته. فما لبث أن دب الخوف عند خدام الملك باعتقادهم ان هذه الأكياس مليئة بالكنوز وقرروا مرافقة الأميرة في رحلتها خوفا من انتقام الملك. وبعد ذلك توجهت المراكب إلى قبرص للتزود بالمؤن.

عند وصولهم إلى الجزيرة ومرورهم بالقرب من معبد فينوس، أمرت أليسار بخطف ثمانون من الفتيات العذارى اللواتي كن في خدمة المعبد، من اجل الاقتران من الرجال الذين رافقوها. هكذا أليسار "ديدون: المتشردة" تحدثت البحار وذهبت بحثا عن "مدينة جديدة" وحطت سفنها على الساحل الأفريقي (3).

(3) محمد الصغير غانم ، معالم التواجد الفينيقي البوني في الجزائر، دار الهدى ،عين مليلة، الجزائر، 2003، ص 5 .

سعت أليسار إلى توطيد الصداقة مع السكان المحليين الذين كانوا فرحين بوصول هؤلاء الغرباء ورعوا في ذلك فرصة لإقامة علاقات تجارية وللمقايضات المتبادلة. فاوضت أليسار مع الملك المحلي من أجل الحصول على أراضي لإنشاء مدينة عليها، ولبي الملك طلبها وعرض عليها ما يعادل تغطية جلد ثور. وافقت أليسار أمام استغراب جميع الحاضرين وخاصة الملك، لكن الأميرة وبحكمتها افتكرت بطريقة للحصول على الكثير من الأراضي. فامرت بجلب الجلد وتقطيعه إلى شرائح رقيقة وذهبت إلى هضبة بالقرب من المكان وطلبت من اتباعها بإحاطة هذه الهضبة بشرائح الجلد وبفضل هذه الحيلة، حصلت الأميرة على مساحة أوسع من ما كانت تبغيه. من هذا الواقع أطلق اسم بيرصا على هذا المكان نسبتا لجلد الثور. توافدت الشعوب المجاورة إلى "مدينة جديدة"، على أمل الربح وتحقيق المكاسب، مع بضائعهم وسلعهم لبيعها إلى هؤلاء الأجانب، واستقر العديد من هذه الحشود مع الصوريين. وأتى أيضا وفد من أوتيك محملين بالهدايا بحكمهم أقارب واهل وشجعوهم لإنشاء مدينة على هذا المكان حيث قادمهم المصير ولجأوا. أراد الأفارقة أيضا الحفاظ على هذا الوجود التعددي. هكذا، وبفضل موافقة وبركة الجميع، تأسست قرطاج بعد أن تقرر تسديد جزية سنوية لاستخدام أراضي المدينة. خلال بناء الاساسات الأولى، عثر البناؤون على رأس ثور، مما يدل على فال الخصبة ولكن من الصعب أن تنمو والمدينة مصيرها العبودية الدائمة. فلذلك نقلوا المدينة إلى مكان آخر. هناك حيث وجدوا رأس حصان، وهو ما يعني أن الشعب سيكون قديرا حربيا وقويا، فبنيت المدينة في هذا الموقع ذات الفأل المواتي(4).

ازدهرت مدينة قرطاج في عهد اليسار مع وصول السكان الجدد وتوافد التجار من جميع الأفق مع سلعهم وثرواتهم. وحسب ما رواه جوستين، طمع هيراباس ملك المكسيتين - السكان الأصليين، بثروة "المدينة الجديدة"، ورغب الاستفادة من تطور المدينة وإيرادها، فطالب اليسار كزوجة له. لكن الملكة لم تكن تبغى الزواج مرة ثانية، وإرادتها كانت أن تبقى وفيه لذكرى زوجها. اختارت اليسار الانتحار بدلا من أن تسبب الخراب لمدينتها بسبب رفضها، وألقت بنفسها في النار. تختلف القصص عن نهاية أليسار لكن جميعها تزوي انتحار الملكة في النار. حسب فيرجيل في كتابه الإنياذة: أينياس، أمير طروادة، الذي في حين كان يتجه مع اتباعه إلى إيطاليا لإنشاء مدينة جديدة، شاءت الظروف، ومع تدخل الآلهة، أن يحط مراسيه على الساحل بالقرب من قرطاج مما أدى على لقاء الملكة. أليسار وأينياس وقعا في الحب وتناسى هذا الأخير الهدف من رحلته واستقر بالقرب من حبيبته. لكن جوبيتر، ملك الآلهة، إغتاظ من هذا الوضع وظهر على اينياس ليذكره ويطلبه بالقيام بواجبه والإبحار راسا إلى إيطاليا لتحقيق ما يريده الآلهة. فلبى الأمير طلب جوبيتر وابحر مع أتباعه من دون أن يعلم الملكة. غضبت أليسار وأمرت خدامها بأن يضرمو النار في جميع ما ترك وراءه اينياس ومن يأسها طعنت قلبها بالسيف ورمت بنفسها في المحرقة (5).

(4) احمد الفرجاوي ، المرجع السابق ، ص 131.

(5) احمد الفرجاوي ، المرجع السابق ، ص 134.

كانت إدارة مدينة قرطاج منذ البدء تحت مسؤولية مدينتها الأم صور. لكن الوضع تتطور ونمت المدينة تدريجياً لتحصل على استقلاليتها التامة تحت إدارة هيئة خاصة بها عُرفت باسم "كبار القضاة". لكن العلاقات ظلت وثيقة ودائمة مع المدينة الأم، حتى وصول الإسكندر المقدوني عام 332 قبل الميلاد إلى مياه مدينة صور البحرية وحصارها. فقام أهالي صور بإجلاء الشيوخ والنساء والأطفال خلال ليالي الحصار على متن سفنها المتجهة إلى قرطاج حيث كان لديهم علاقات عائلية وبأمل العثور على مأوى بعيداً عن الحرب المفروضة عليهم من قبل المقدونيين.

كما ذكرنا، ازدهرت قرطاج لتصبح مدينة كبيرة ومستقلة، مع سياستها التجارية وعلاقاتها الدبلوماسية الخاصة، وتخطت جميع أخواتها المدن والمراكز التجارية الفينيقية في غرب البحر الأبيض المتوسط، وما لبثت أن تحل محل صور كوصية على جميع عمليات التداول الفينيقي في تلك المنطقة. إن الازدهار والهيمنة القرطاجية اعطت "المستعمرة" الأهمية المميزة لفرض نفوذها والسيطر على الغرب المتوسطي. منذ ذلك الحين، اطلق لقب "البونية" على المنطقة، وتم تعريف السكان "بالبونيين" مع الدخول في فصل جديد من تاريخ البحر الأبيض المتوسط. دامت الروابط بين قرطاج وصور خلال عدة دهور لكنها انضحلت بعد انتصار روما على قرطاج (الحروب البونية) وامتداد النفوذ الروماني على جميع محيط البحر المتوسط. "Mare Nostrum". هذا الشعب البوني، نسل الفينيقيين الشجعان، خلق حضارة ومنطقة خاصة به ذات ثقافة مختلفة. لتصبح قرطاج إمبراطورية ويمتد نفوذها، في أوج عزها، من السواحل الليبية لتتجاوز أعمدة هرقل، وتمتد على سواحل المحيط الأطلسي، البرتغال إلى الشمال والمغرب إلى الجنوب، وامتدت أراضيها إلى إسبانيا وعلى اغلب الجزر في المتوسط (صقلية، سردينيا، كورسيكا،...). ووصلت جيوشها وعلى رأسهم هانيبعل، بعد عبور جبال الألب إلى أبواب روما (6).

النظام السياسي

قرطاج دولة تطوّرت من وضعيّة مستوطنة فينيقية إلى عاصمة امبراطورية تجارية على السواحل الجنوبية من الحوض الغربي للمتوسط وجزره (من 814 ق م إلى نهاية الفترة البونوية 146 ق م). شهد القدامى من الإغريق واللاتين بحسن تنظيم مؤسساتها السياسية واستقرارها. نظمت مؤسساتها السياسية وفق دستور وقامت فيها الحياة السياسية على القانون ومشاركة المواطن في تسيير شؤون الدولة. كما وشهدت تطوّراً على غرار المدن الاغريقية في المتوسط باعتبار دور فئة المواطنين داخل المدينة والتوازن بين فئات المجتمع (7).

(6) دوكرية فرانسوا، قرطاج الحضارة والتاريخ، ترجمة يوسف شلب، الطبعة الأولى، دمشق، 1994، ص ص 89-90.

(7) انديشه احمد محمد، تاريخ إقليم طرابلس السياسي والاقتصادي في العصر الروماني في 27 ق م. إلى 305 م.، رسالة ماجستير، 1989، ص 102.

في قرطاجة زالت الملكية الوراثية باكراً وحلت محلها الملكية الانتخابية. ومع أنّ الملكية جمعت في نفسها وظيفة الكهنوت والقضاء والإدارة التنفيذية، فإنّ انفصال القيادة الحربية والسلطة العسكرية عنها أضعف مركزها وسيطرتها. ثمّ إنّ الملكية نفسها انحطت في أوائل القرن الرابع ق. م إلى حالة الانتخاب السنوي بواسطة الكلية الانتخابية. وهكذا نجد الدولة القرطاجية تتجه رويداً نحو الديمقراطية السياسية، بعد أن كاد احتكار بيت ماقون سلطة الإدارة الممثلة في السوفتتين وقيادة الجيش يعيدها إلى ملكية (8). كانت مكونات النظام السياسي القرطاجي في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد (حسب أرسطوطاليس) كانت كالآتي:

- مجلس الشعب : ويشمل المواطنين القرطاجيين دون غيرهم من الأجانب والعبيد مع الملاحظ أنّه بإمكان الأجانب الارتقاء لصف المواطنين حسب شروط يضبطها القانون ومن صلاحياته: انتخاب القواد العسكريين والأسباط والنظر في كل القضايا التي تهمّ السلم والحرب والاقتصاد. يعتبر مجلس الشعب: هيئة منتخبة من المواطنين تعرض عليها جميع المسائل التي لم يحصل في شأنها الاتفاق بين الملكين من جهة وبين مجلس الشيوخ من جهة أخرى، وتكون لها الكلمة النهائية. وكانت قرطاج بذلك من أوائل الدول في العالم القديم التي عاشت تجربة النظم الشعبية.
- مجلس الشيوخ: المتكوّن من 300 عضو وله صلاحيات واسعة في الميدان التشريعي والسياسة الخارجية ويلعب دوراً في التوازن بين المؤسسات عندما يلجأ إليه. أعضاء مجلس الشيوخ يتم اختيارهم لمدى الحياة من بين الطبقة الثرية. يعتبر مجلس الشيوخ هو أبرز الهيئات وأعلاها شأنًا، ويتولى جميع شؤون الإدارة العليا، ويقرر أمور السلام والحرب ويولي قواد الجيش ويعزلهم وإليه يعود الملوك ومنه يستمدون قوتهم، وله الحق - في حالة الضرورة - أن يعقد جلسات سرية ولا يذيع نتيجة التصويت أو يؤجل إداعتها.
- السبّطان : ينتخبان لمدة سنة ويسهران على حسن سير الشؤون الإدارية وعلى تنفيذ قرارات مجلس الشيوخ ومجلس الشعب.
- محكمة المائة : وتتكوّن من 104 عضواً وتتطور في شؤون أمن الدولة وتتصدّى لمحاولات الحكم الفردي.
- مجلس الحكماء: تلي في الأهمية مجلس الشيوخ. تتكون من 104 أعضاء يتم انتخابهم حسبما أظهره من كفاءة. مهام المحكمة وسلطاتها مراقبة الملوك وجميع الحكام وتقديمهم للقضاء إذا أخلوا بواجباتهم.
- الجمعيات : هي جمعيات سياسية ودينية تعتبر أقساماً وشعباً انتخابية. كل عضو في أي من هذه الجمعيات ينتخب داخل شعبته، لكن رأي الأغلبية يعتبر رأي الشعبة كلها وبحسب صوت واحد في الانتخاب العام وينظر أعضاء هذه الجمعيات في شؤون الدولة وأعمال المجالس الشعبية.

(8) محمد حسين فنطر ، الحرف والصورة في عالم قرطاج ، مركز النشر الجامعي، تونس ، 1999 ، ص 227 .

الصراع السياسي

وفي قرطاجة، كما في روما، كان نزاع شديد بين حزب الشعب والطبقة القابضة على مقاليد الأمور. ومع أن المبدأ المعترف به في قرطاجة كان مبدأ سيادة الشعب، إذ كان من المقرر أن يستقن الشعب في كل اختلاف بين المجلس والمراجع الحكوميّة، فإنّ هذا المبدأ ظلّ بعيداً عن التحقيق بسبب مناورات الطبقة الحاكمة وبذل المال. ولكنّ الكوارث التي نزلت بقرطاجة في الحرب البونيقية الأولى وخسارة الحرب البونيقية الثانية التي كانت كفتها فيها راجحة، قوّت روح الاستياء في شعب المدينة ونشط الحزب الديمقراطيّ ومكّن هاني بعل من تحقيق إصلاحه الديمقراطيّ بإلغاء إعادة انتخاب أعضاء مجلس الـ104 أكثر من مرّة واحدة وتحويل بعض القوانين الإداريّة والماليّة فكان هذا الإصلاح سابقة للإصلاح العراقيّ في روما. أعطى إصلاح حنبعل قرطاجة الديمقراطيّة الصحيحة والاتجاه الديمقراطيّ الفعليّ. ولم يبق أمام قرطاجة لاستعادة حيويتها الإمبراطورية سوى تمديد الحقوق السياسيّة المركزيّة إلى المدن الفينيقيّة التابعة أو الموالية لها ورفع الحقوق الشخصيّة والمدنيّة في الشعوب الليبية التي ظلت موالية لها، وإعادة تنظيم الجيش على أساس قوميّ بدلاً من الجيش المستأجر الذي كان يؤلّف أهمّ قسم من القوّات المحاربة (9).

لكنّ روما لم يكن يهدأ لها روح ما دامت نددتها العظيمة قيد الوجود فظلّ كاتو يختم كلّ خطاب من خطبه في مجلس الشيوخ الروماني بهذه العبارة «أعتقد أنّه يجب تدمير قرطاجة» حتّى كانت الحرب الفينيقيّة الثالثة التي انتهت بخراب المدينة وقتل معظم أهلها وجلاء الباقين عنها.

وصف أرسطو حكومة قرطاجة في 340 ق م وقال أنها كانت أساساً حكومة أغنياء المدينة، وأن أساس نجاحها كانت نموها الاقتصادية الدائمة واستعمارها، فهكذا كل مواطن رأى أن حاله كان يتحسن. وكان أكبرهم الـ"شوفط"، قاض القضاة، وقائد الجيوش الذي لم يدخل في حكومة المدينة، وفي القديم أيضاً كان لهم ملوك. تحتهم كان مجلس الشيوخ وتحتهم مجلس المدنيين. واختيار الشوفطين والملوك كان حسب حسنهم ومالهم، ولا يرتبط بعائلتهم. ويذكر أرسطو أن من أراد أن يجادل رأي الملوك والشوفطين يستطيع أن يفعل ذلك لما خاطب الملوك والشوفطين الشعب. ولمعظم تاريخهم كان جنودهم أجراء وليس حلفاء، وأحياناً أصبح هذا مشكلة كبيرة كما رأينا (10).

(9) انديشه احمد محمد، المرجع السابق، ص 111.

(10) انديشه احمد محمد، المرجع السابق، ص 114.

التوسع التجاري

تميّز الميناء القرطاجي ببنية مركبة فشمل الميناء التجاري والميناء العسكري وورشات لإصلاح السفن والمخازن... وقد غطى الميناء مجالا متسعا تجاوز 20 هكتارا حيث تمتع الميناء بموقع استراتيجي وبموضع محصن وعكس صنعة الإنسان القرطاجي وأحكام استغلال الموروث من الفنيقيين. ساهم البناء في بناء القوة التجارية والعسكرية لقرطاج ودعم حضورها في المتوسط بحوضيه الشرقي والغربي. كما وتمكنت قرطاج من التوسع في المتوسط مبكرا قبل أن ينجز الميناء على الشكل المعروف والذي وصفه العديد من المؤرخين. ومع القرن الثالث ق م تدعم التوسع القرطاجي وكان للميناء دور متميز. تنطلق السفن الحربية والتجارية من ميناء قرطاج وتسيطر على المسالك التجارية البحرية الهامة في المتوسط وكذلك المسالك في المحيط الأطلسي عبر حضورها المكثف في جزر المتوسط (مالطة - سردينيا - بنتلاريا - جزر البليار - غرب جزيرة صقلية) وفي جنوب إسبانيا والسواحل المغربية والإسبانية. مكنت التجارة القائمة على الوساطة والحرفية التي ميزت التجار القرطاجيين وسياسة الدولة التي جمعت بين إبرام المعاهدات واللجوء إلى القوة عند الاقتضاء من بروز إمبراطورية تجارية قرطاجية كما وكرست قرطاج بنشاطها التجاري التلاحح الحضاري ودعمت جسر التواصل بين شرق المتوسط وغربه (11).

نظام الحكم

تعرضت قرطاج للنقد من قبل أعدائها بسبب المعاملة القاسية واستغلال رعاياها الذين كانوا بالتأكيد عدة طبقات، وكان أصحاب أكثر الامتيازات هم سكان المستوطنات الفينيقية القديمة والمستوطنات اللاحقة التي أقامت قرطاج بنفسها وهؤلاء السكان هم من أطلق الإغريق عليهم اسم "الفينيقيين اللبيين" "الفينيقيين الإغريقيين" ويبدو أنه كان لهذه المستوطنات إدارة محلية ونظم حكم مشابهة لما كان لدى قرطاج، وكان سكان هذه المستوطنات يدفعون الرسوم على الواردات والصادرات، وأحيانا كان يتم تجنيد القوات من بينهم ومن المرجح كذلك أنهم وردوا البحارة لسفن الأسطول القرطاجي وبعد سنة 348 ق.م، يبدو أنه حرمت عليهم التجارة مع أي أحد عدا قرطاج (12).

(11) وارمنجتون ، العصر القرطاجي، من كتاب تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثاني، حضارات افريقية

القديمة، المشرف على المجلد جمال مختار، جين أفريك، اليونيسكو، 1985 ، ص464 ..

(12) محمد ابو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، دار النهضة العربية، بيروت، 981م، ص13 .

وفي صقلية تأثر وضع الرعايا القرطاجيين هناك بسبب مجاورتهم للمدن الإغريقية، فسمح لهم بأن تكون لهم مؤسساتهم الخاصة بهم، وأن يصدروا عملتهم الخاصة خلال القرن الخامس، في وقت لم تكن قرطاجة نفسها تصدر عملة، ويبدو أن تجارتهم لم تقرض عليهم قيود، وعلى غرار ما قام به الرومان عندما سقطت صقلية في يد روما، فقد فرضت ضريبة مقدارها عشر الإنتاج. وكان أسوأ الجميع حالاً هم الليبيون في الداخل وإن كانوا على ما يبدو قد سمح لهم بإقامة تنظيمات قبلية ويبدو أن الموظفين القرطاجيين قد أشرفوا بطريقة مباشرة على جباية الضريبة وتعبئة الجنود وإن الضريبة العادية المفروضة كانت ربع المحصول وزيدت إلى خمسين في المائة منه عندما تأزم الموقف في الحرب البونية الأولى مع روما. وإذا كان من الصعب التعرف على نمط الحكم في قرطاجة فإن الخطوط الرئيسية لنظامها السياسي تبدو على النحو التالي: سادة المدن الفينيقية الملكية الوراثة حتى العصر الهلنستي، وكل مصادرنا تشير كذلك إلى الملكية في قرطاجة، وخلال القرن الخامس حدث تطور كبير، تناقصت خلاله قوة الملوك، ويبدو أن هذا التطور صاحب نشأة سلطة "الشفطان" "Sufetes" والكلمة تتضمن معنى القاضي والحاكم، ومنذ القرن الثالث كان ينتخب منهم اثنان وربما أكبر سنوياً.

ومن السهل مقارنة القرطاجيين بالقرطاجيين الرومان، وقد ظل مصطلح "الشفيط" مستخدماً في شمال إفريقيا في مناطق الثقافة القرطاجية لمدة قرن على الأقل بعد الغزو الروماني، ليشير به إلى الحكام الرئيسيين للمدينة، وفي الوقت نفسه ازدادت قوة الأرستقراطية الثرية. وفي القرن الرابع أو الثالث فصلت قيادة القوات المسلحة فصلاً تاماً عن الوظائف الأخرى، وكان القوات يعينون فقط في حالة الحاجة ولحملات محددة الجهة، حيث لم يكن للدولة جيش ثابت يتطلب قائداً دائماً، وانتهجت العديد من الأسر نهجاً عسكرياً مثل آل ماقون في أوائل التاريخ القرطاجي، وآل برقا فيما بعد. ومن الملاحظ أن قرطاجة لم تخضع لانقلاب عسكري يقوده قائد طموح مثلما تكرر هذا المصير في المدن الإغريقية وبخاصة في صقلية (13).

(13) سامي سعيد . الاحمد، أحمد، جمال رشيد، تاريخ الشرق الأدنى القديم، بغداد، جامعة بغداد، 198، ص209.

حروب قرطاجة

• الحرب الصقلية الأولى

كان هدف معظم المدن اليونانية هدف قرطاج نفسه - السيطرة على التجارة في البحر الأبيض المتوسط. ولهذا أصبحت بينهما عداوة دائمة. وكلاهما بدأ باستعمار جزيرة صقلية منذ زمن، ولما رأت قرطاج أن جيلون، دكتاتور مدينة سيراكوزا، كان يحاول توحيد المدن اليونانية في صقلية، قررت محاربه في عام 480 قبل الميلاد. فأرسلت جيشا كبيرا بقيادة هملقار، ولكن الكثير من الجيش غرق مع سفنه، فهزم في هيميرا قرب باليرمو، وعليه انتحر هملقار وتحولت حكومة قرطاج من أرستقراطية إلى جمهورية.

• الحرب الصقلية الثانية

بعد أقل من سبعين عام رجعت قرطاج إلى قوتها الأصلية. أنشأت مدن كثيرة في شمال تونس. ففي عام 409 ق م ذهب حنبعل ماجو حفيد حملقار ليحارب ضد مدن صقلية اليونانية وفتح مدن سلينونتي وهيمبرا. كلها، وخاصة المدينة الأقوى سيراكوزا، لكن دخل الطاعون في جيشه، فماتوا الكثير ومنهم حنبعل ماجو. استنمر القائد حملكو الحرب، واحتل مدينة جيلا، لكن أثر الطاعون عليهم كثير فاتفقوا مع ديونيزيوس ديكتاتور سيراكوزا رجعوا. بعد قليل - في عام 398 ق م - رفض ديونيزيوس اتفاقهم وهاجم على المدينة القرطاجية موتيا في صقلية، فدافع عليها القائد حملكو وبعد نجاحه احتل المدينة اليونانية مسينا أيضا. أخيرا هاجم على سيراكوزا طول عام 397، لكن عاد الطاعون في 396 فهربوا. بعد ذلك حاربوا مرات عديدة طول 60 سنة، وانتهت الحروب في 340 ق م بتقسيم الجزيرة بين قرطاج في الجنوب الغربي والمدن اليونانية على الشواطئ الأخرى (14).

• الحرب الصقلية الثالثة

في عام 315 ق م أخذ اغاثوقليس (دكتاتور سيراكوزا) مدينة مسينا، ثم رفض اتفاق السلام بينه وبين قرطاج وهاجم على الجزء القرطاجي لصقلية، وأيضا مدينة اكراس. فأرسلت قرطاج حملقار حفيد حنى الطيار ليحاربهم، وكان نجاح عظيم، ففي عام 310 ق م كان يحكم تقريبا كل الجزيرة وكان جيشه حول سيراكوزا نفسها. لآكن اغاثوقليس ذهب سرا مع جيش 14000 جندي ليهاجم عن قرطاج نفسها، فدعى مجلس قرطاج حملقار ليعد ويدافع المدينة. فربحت قرطاج جزء كبير من صقلية، لكن حتى بعد نصره على جيش اغاثوقليس لم يقدر على سيراكوزا.

• حروب بيروس الأبيري

كان بيروس الأبيري ملك يوناني في البانيا دعته المدن اليونانية في جنوب إيطاليا وصقلية ليحكمهم ويدافع عنهم، فبين الأعوام 280 و 275 ق م، حارب عدويه اللدودين روما وقرطاج. خسر في حروبه، فرجعت صقلية إلى ما كانت وحكمت روما كل جنوب إيطاليا، ففقت إلى قرطاج للمرة الأولى.

(14) ابراهيم نصحي، تاريخ الرومان، المجلد الثامن، القاهرة، 1977، ص 209.

• الحرب البونوية الأولى

لما مات الدكتاتور اغاثوقليس عام 288 ق م، الأجراء الإيطالية في جيشه فقدوا خدمتهم، فغضبوا وحكموا مدينة مسانا وسموا أنفسهم "ماميرتين" يعني "تابعي اله الحرب" وأخذوا يحاربون على كل مدن صقلية. فبعدها أصبح هيبيرون الثاني دكتاتور سيراكوزا في عام 265 ق م هاجم عليهم، فأرسل الماميرتين سفير إلى روما ليطلب عونهم، وسفير ثان إلى قرطاج. وأجابت قرطاج وبعثت جيش إلى مدينة مسانا ومجلس أعيان روما لم تنزل تتناق. لآكن بعد قليل اتفقوا القرطاجيون مع سيراكوزا، فطلبوا الماميرتين عوناً روما ليخرجون جيش قرطاج. لم تقبل روما أن يكون دولة قوية في مسانا لأنها قريبة جدا إلى جنوب إيطاليا، فقرروا أن يبعثوا جيش لتأييد الماميرتين، وبدأت الحرب البونيقية الأولى. الجيش الروماني الأول لم يربح، لآكن في عام 263 ق م، بعثت روما جيشاً ثان، وبعدها أخذت بعض المدن الصقلي، رفض هيبيرون الثاني اتفاهه بقرطاج وحالف روما (15).

رأت روما أن الحرب أصبحت فرصة لاحتلال صقلية كلها، ولذلك بدأت تبني سلاح البحر. لم يكن في روما أي سفينة في البداية، فصعبت عليها، لآكن ازدادت إلى السفن سلاح جديد تسمى الـ"كورفوس" (يعني الغراب) وهو حطب طويلة بزررة تستعمل كجسر لدخول سفن الأعداء. وبها ربخوا في البحر وفي 255 هاجموا على قرطاج نفسها. وتقريباً أسلمت قرطاج، لآكن لما سمعوا شروط روما استمرت الحرب وطاردهم من افريقية، ثم حاربوا الرومان في صقلية وبدأوا حرب ثاني ضد نوميديا في افريقية. ولما كان النصر قريب في صقلية، قرروا أن يرسلوا معظم سفنهم إلى نوميديا في عام 247 ق م، فلم يربح أي واحد في صقلية وقتاً طويلاً. لآكن أخيراً بنت روما سلاح البحر جديد ودمرن صفن قرطاج، فأسلمت قرطاج كل صقلية إلى روما وانتهت الحرب البونيقية الأولى في عام 241 ق م (16).

• حرب الأجراء

خسروا القرطاجيون مالا كثير للرومان كجزء من اتفاههم، فلم يكن لهم مال لقبض أجرائهم، فغضبوا وبدأوا حرباً ضد قرطاج بعون نوميديا في عام 241 ق م. كان قائدا الأجراء ماثوس اللوبي وسبينديوس العبد الروماني، ويقال أنهم رجموا كل من تكلم عن هدنة، ولهذا أيضاً تسمى "حرب لا هدنة". وبعد سنين ربح القائد القرطاجي العظيم حملقار برقة بجند 10000 مواطني قرطاج (وكان معظم الجيش القرطاجي قبل ذلك أجراء وليس مواطنين). وبعد نصره أصبح حملقار برقة رئيس الدولة وذهب ليستعمر اسبانيا (17).

(15) ابراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 210.

(16) ابراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 211.

• الحرب البونوية الثانية

بعد ما عبر الايبرو سار حنبعل وجيشه بسرعة، وعبروا جبال الالب في 218 ق م. لما وصلوا إلى إيطاليا دخل في جيشهم كثير من الأجراء والحلفاء من عند قبيلة الكول وهزم الجيوش الرومانية في المنطقة بسهولة، ولما رأوا هذا حالفه الكثير من مدن إيطاليا ومنهم سيراكوزا. في نفس الوقت كان جيش روماني يحارب في اسبانيا. وقرب إلى روما حتى وصل إلى ميناء كابوا في 211 ق م، لكن بعد موت أخوه عزربعل في عام 207 رجع إلى مدينة بروتيوم في جنوب إيطاليا. وأخيرا حالف الرومان الملك النوميدي ماسينيسا وأرسلوا جيشاً ليهاجم على افريقيا نفسها، فبعد قليل نجت روما ودخلت اسبانيا كلها في اتفاق السلام، ومنعت قرطاج من أي حرب - حتى ولو كانت في دفاع نفسها - إلا بإذن روما.

• حرب ماسينيسا

في 195 ق م، بعد أن طردوا الرومان حنبعل من قرطاج، أخذ ماسينيسا ملك نوميديا جزءا كبيرا من ما كان ملك قرطاج في افريقيا، من عنابة في الجزائر حتى لفتي في ليبيا، وهو يعرف أنهم لا يستطيعون أن يدافعوا على أنفسهم إلا بإذن حليفه روما. في 160 أخذ المزيد من أراضي قرطاج، فبعثت قرطاج سفير إلى روما لتطلب إذنهم الحرب، وأمر روما ماسينيسا أن يرد لقرطاج بعض المدن، لكن لم يكفي في رأي قرطاج، ففي عام 151 ق م، حاربوا ضد ماسينيسا وخسروا بسرعة. وكان فريق كبير في روما يريد تدمير قرطاج شامل - وأشهرهم مارقوس كاتون الذي زار قرطاج في عام 155 ق م وبعد زيارته كان يكمل كل خطاب له في المجلس بصرخة "Carthago delenda est" علينا أن ندمر قرطاج" - فقالوا أن قرطاج نقضت الاتفاق وهاجموا عليها(18).

• الحرب البونوية الثالثة

كان الحرب البونيقية الثالث أسرع من الحروب قبلها. أولا حاصر جنود روما قرطاج طول 3 سنين، وأخيرا نجحوا ودمروا قرطاج تدمير شامل. ذبحوا معظم المدنيين وباعوا الآخرون كعبيد، وحرقوا المدينة ودمروا جدرانها، ويقال أنهم حرثوا الأرض بالملح لكي لا ينمو فيها أي نبات أبدا ولا يسكنها أحد. وانتهت شهرة قرطاج وثبتت إمبراطورية روما(19).

(17) ابراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 211.

(18) ابراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 212.

(19) ابراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 213.

تدمير قرطاجة

انتهت الملحمة البطولية ملحمة الدفاع عن قرطاج. وإذا كانت هذه الحرب أسفرت عن وفاة مدينة، فقد أكدت أن الإنسان أقوى من القهر، وأن إرادته لا تردع بسهولة. ولقد تأثر لهذه المأساة حتى بعض المؤرخين الأوروبيين، يقول وارمنغتون: ألقى سيبو أميليانوس نظرة علي المدينة التي ازدهرت أكثر من سبعمائة سنة منذ انشائها، والتي حكمت مناطق كثيرة، جزرا وبحارا، وكانت ثرية في السلاح والأساطيل والفيلة والمال، مثل الامبراطوريات العظمى، بل والتي فاقتها في الإقدام والشجاعة الفائقة. فبالرغم من أنها جردت من كافة أسلحتها وسفنها، فقد صمدت أمام حصار شديد، ومجاعة دامت ثلاث سنوات، ووصلت الي نهايتها بالتدمير الكلي . ويروي المؤرخ اليوناني بوليبيوس الذي رافق القائد الروماني في عملية التدمير، فيقول: أن سيبو أميليانوس بكى تأثرا بما آل له عدوه، فاستعرض أمامه الحقيقة المتمثلة في أن الأفراد والأمم والامبراطوريات نهايتها محتومة، وكذلك نصيب مدينة طروادة العظيمة، ونهاية الامبراطوريات الأشورية، والميدية، والفارسية، والتدمير الأخير لامبراطورية مقدونية الكبيرة. تمنع في هذا كله ثم ردد بقصد أو بدون قصد، كلمات هكتور في الياذة هوميروس: (سيأتي اليوم الذي تسقط فيه طروادة المقدسة، وكذلك الملك بريام وجميع رجاله المسلحين معه) ، وعندما سأل المؤرخ بوليبيوس، سيبو، ماذا تقصد بهذا؟ ، التفت اليه القائد الروماني وقال بتأثر: هذه لحظة عظيمة يا بوليبيوس.. ان الخوف يملكني من أن نفس المصير سيكون لوطني في يوم من الأيام (20).

(20) بسام العسلي، هانيبال القرطاجي (147-183) م.ق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980، ص.26.

المراجع

- (1) احمد الفرجاوي، بحوث حول العلاقات بين الشرق الفينيقي وقرطاجة ، تونس ، 993 ، ص. 53.
- (2) أروسيوس، تاريخ العالم، ترجمة وتحقيق عبد الرحمان بدوي، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1982 ، ص 7.
- (3) محمد الصغير غانم ، معالم التواجد الفينيقي البوني في الجزائر، دار الهدى ،عين مليلة، الجزائر، 2003، ص 5.
- (4) احمد الفرجاوي ، المرجع السابق ، ص 131.
- (5) احمد الفرجاوي ، المرجع السابق ، ص 134.
- (6) دوكرية فرانسوا، قرطاجة الحضارة والتاريخ، ترجمة يوسف شلب ، الطبعة الأولى، دمشق، 1994 ، ص ص 89-90.
- (7) انديشه احمد محمد ، تاريخ إقليم طرابلس السياسي والاقتصادي في العصر الروماني في 27 ق م إلى 305 م. رسالة ماجستير، 1989 ، ص. 102.
- (8) محمد حسين فنطر ، الحرف والصورة في عالم قرطاج ،مركز النشر الجامعي، تونس، 1999، ص 227.
- (9) انديشه احمد محمد، المرجع السابق، ص 111.
- (10) انديشه احمد محمد، المرجع السابق، ص 114.
- (11) وارمنجتون ، العصر القرطاجي، من كتاب تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثاني، حضارات إفريقية القديمة. المشرف على المجلد جمال مختار، جين أفريك، اليونيسكو، 1985 ، ص. 464.
- (12) محمد ابو المحاسن عصفور، المدن الفينيقية، دار النهضة العربية، بيروت، 981 م، ص. 13.
- (13) سامي سعيد. الاحمد، أحمد، جمال رشيد. تاريخ الشرق الأدنى القديم، بغداد، جامعة بغداد، 198، ص 209.
- (14) ابراهيم نصحي، تاريخ الرومان، المجلد الثامن، القاهرة، 1977، ص 209.
- (15) ابراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 210.
- (16) ابراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 211.
- (17) ابراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 211.
- (18) ابراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 212.
- (19) ابراهيم نصحي، المرجع السابق، ص 213.
- (20) بسام العسلي، هانيبال القرطاجي (147-183 م) ق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1980، ص. 26.